اجتهادات
التراثُ بالحداثةِ يُعرفُ

التراثُ والحداثة, أو الأصالةُ والمعاصرة, نقيضان أو ضدان فى نظر كثيرٍ من أسرى النظرة الأحادية، وهم كُثُرُ عندنا وفى العالم. ولكن فضلا عن أن فى كلٍ من التراث والحداثة ما هو ضرورى للتقدم، ثمةُ علاقةٍ أخرى بينهما تغيبُ غالبًا عن الأذهان. لم يُعرف التراثُ الإسلامى، بالمعنى الذى نعرفُه به اليوم، قبل الحداثة.

لم يكن التراثُ يعنى الأفكار والقيم والتقاليد الموروثة، والرأسمال التاريخى الرمزى بوجه عام، قبل أن يتطور الوعىُ بمعناه هذا منذ منتصف القرن التاسع عشر، بعد أن بدأ الاحتكاك مع الأفكار الغربية الحديثة. كانت كلماتُ التراث والميراث والإرث تعنى المال الذى يُورَّث. هكذا كان معناها ليس فقط فى القواميس العربية، قبل أن يُضاف إليها المعنى الناتج عن الوعى الجديد، بل فى المعاجم الأوروبية أيضًا. فما حدث لنا فى العالم العربى والإسلامى كان له ما يماثُله بأشكالٍ مختلفة فى الغرب والمناطق الأخرى, بشأن تطور الوعى بالقديم عند ظهور الجديد أو التفاعل معه.

كان التمييزُ بين الحاضر والماضى على الصعيد الثقافى-القيمى أحد آثار الحداثة. فلم يبدأ الاهتمامُ بدراسة التراث بوصفه تراثًا فى أوروبا إلا بُعيد الثورة الفرنسية فى آخر القرن الثامن عشر. وقل مثل ذلك عن التراث الإسلامى، فلم يُبدأ فى دراسته باعتباره تراثًا إلا فى أوائل القرن الماضى. ولم يُطرح سؤالُ المنهج فى دراسة أصول الدين على سبيل المثال، إلا عندما اهتم به الشيخ مصطفى عبدالرازق.

كما أسهمت الحداثةُ فى إدراك أهمية المحافظة على التراث بوصفه تراثًا أيضًا. وعندها بدأ إنشاء متاحف عامة يُتاح للجميع دخولها، ونقل الكثير مما كان موجودًا فى قصور الأمراء والنبلاء والارستقراطيين إليها. ويُعدُ معهدُ الفنون والصنائع، الذى أُنشئ فى تسعينيات القرن الثامن عشر، أول متحف بهذا المعنى فى أوروبا وليس فى فرنسا فقط.

الحداثةُ والتراث, إذن, ليسا ضدين إلا لدى المتعصبين لهذا أو تلك. وسيبقى هذا التعصبُ إلى أن يتيسر تحقيقُ توفيق خلاَّق، وليس تلفيقًا، بين كل ما هو مضىء فى التراث، وكل ما هو نافعُ ومفيدُ فى الحداثة.